مجلة التدوين
المجلد 7 / عـدد 15 _30 جانفي 2020 ، ص 110- 118

المثقف من نمطية الأداء إلى الاستعلاء الثقافي

Les intellectuels de la performance typique à la supériorité culturelle

أ.شنوف نصرالدين*[1]، د.بلبولة مصطفى*[2]
كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف

****

تاريخ الإرسال:2019/08/29 تاريخ القبول: 2019/09/22 تاريخ النشر: 30 /2020/01

ملخص :
لقد قدم المثقف عموماً والعربي على وجه التحديد نفسه في كل مرة على أنه ضمير المجتمع وحارس الوعي الجمعي باعتباره من طبقة متعالية مفارقة نسميها بالنخبوية. ومن خلال هذا الوهم سعي المثقف إلى تنصيب نفسه وصياً على الحرية والثورة، ورسولاً للحقيقة والهداية وقائداً للمجتمع والأمة، وظل يعتقد أنه بإمكانه تحرير المجتمعات والشعوب من كل أشكال التبعية والهيمنة أو من شروط التخلف والفقر، من غير أن يكلف نفسه عناء إعادة النظر في هواماته الإيديولوجية وأمراضه النفسية. لقد صار المثقف يتصرف وكأنه ساحر أو داعية أو كاهن يأتي بالتحرير من حيث لا يعلم ذلك إلا هُوَ. وسنحاول في هذا البحث أن نقدم تحليلاً نقدياً لهذا المشهد التراجيدي لصورة المثقف العربي الذي يجعل ذاته في مقابل العالم.
الكلمات المفتاحية: المثقف، النخبة، الايديولوجيا، المجتمع العربي.

---

* أستاذ الباحث شنوف نصرالدين: chennoufnasreddine92@gmail.com.
*بلبولة مصطفى، أستاذ محاضر قسم "أ"، mostefabelboula@yahoo.fr

Résumé :

L'intellectuel en général, et plus précisément l'intellectuel arabe, se présente, à chaque fois, comme étant la conscience de la société et l'ange gardien de cette conscience collective, se considérant comme une tutelle pour la et la révolution, et un guide pour la nation. Il a toujours prétendu être le libérateur des sociétés de toute forme d'aliénation, de sous-développement et de pauvreté, sans pour autant se donner la peine de remettre en question ses fantasmes idéologiques et ses maladies psychiques. Il se comporte comme étant un magicien qui, lui seul, peut ramener la libérté.
Cette article est une tentative de présenter une analyse critique de cette scène tragique que représente l'intellectuel arabe qui se place en opposition avec le monde.

les mots clésm: Intellectuelle, élite, idéologie, société arabe.

مقدمة:

المثقف في أفق المشهد الفلسفي المعاصر.

تعتبر مقولة المثقف من أهم المقولات الفلسفية الحديثة بالمقارنة مع قضايا الفلسفة الأصلية كالوجود والحقيقة والقيم، أما في الدرس الفلسفي، فيرجع الاشتغال عليها إلى مدة لا تتعدى القرنين على الأكثر، فلا يكاد تاريخ استعمالها في الفكر العربي يتعدى نصف قرن، أما في الفلسفة المعاصرة فإلى أكثر من قرن على الأقل بالمعنى الذي تحمله في الخطاب المتداول الراهن. وعموما يمكن طرح الإشكال التالي: ما ماهية المثقف وماهي أهم مميزاته ومحدداته؟ وما معنى أن يراهن المجتمع على المثقف؟ وماهو دوره في تنمية الفكر والثقافة ونقد السلطة؟ وماهي أهم الانتقادات الموجهة للمثقف العربي بناءً على ما نعيشه من أحداث ووقائع؟. إن هذه الأسئلة لا ترمي في الأخير إلا في مستوى الخطاب النقدي السائد للمثقف ودوره الذي ظل يلعبه عبر سنوات من الزمن خصوصاً في الثقافة العربية السائدة. ولكن نقد وتحليل لا يخرجان على الإطار الفلسفي والمنهجي عبر مقاربة المقولة من خلال بعض النماذج الفلسفية.

1/ المثقف في الفكر الفلسفي الغربي.

تعتبر مقولة المثقف من المقولات الفلسفية الحديثة خصوصاً في الفكر العربي المعاصر. يرجع الاشتغال عنها إلى حدود القرن الماضي على أكثر تقدير[1]. ولقد أثيرت قضية المثقف أول ما أثيرت في أفق الفلسفة الغربية خصوصاً مع الفيلسوف الماركسي (أنطونيو غرامشي) الذي أثار مقولة المثقف العضوي إثارة فلسفية خالصة، ميز من خلالها بين نوعين من المثقفين، مثقف تقليدي كما تمثل في أدوار الكهنة والعمال ورجال الصناعة ومثقف فعال يعمل دوماً على تنشيط العجلة الفكرية في المجتمع الذي يحيى فيه، إذ لا ينفك أن يفكر في تحديات مجتمعه وسبل تجاوزها، لذا فإن المثقفين في تصور أنطونيو غرامشي بما هم مثقفون لا يشكلون طبقة مستقلة بل إن كل مجموعة اجتماعية لها جماعة من المثقفين خاصة بها، أو هي تعمل على خلقها (...) إنه إذا كان من الممكن الكلام عن المفكرين "أي المثقفين" فإنه لا يمكن الكلام عن غير المفكرين لأن غير المفكرين غير موجودين، إن كل إنسان يقوم خارج نطاق مهنته بنوع من أنواع النشاط الفكري[2]. بهذا الشكل يقارب غرامشي مقولة المثقف بالنظرة الماركسية التي تستمد قوتها من الرؤية الناتجة عن الصراع الطبقي الاجتماعي

والمتمخضة عن جدل الإنسان مع التاريخ والمادة، ليثير مسألة علاقة المثقف بمجتمعه وطبيعة هذه العلاقة التي تربطهما، خصوصاً وأن المثقف هو مُحَصِّلَة تحولات اجتماعية، إنه نتاج ثقافة مجتمعه بقدر ما هو متماهٍ مع معارفه الخاصة والمتخصصة. والحديث عن التخصص في سياق الكلام عن مقولة المثقف يحيلنا إلى (ميشيل فوكو) الذي أخرج مقولة المثقف المتخصص بخلاف المثقف الكوني، فالمثقف المتخصص عند فوكو هو ذلك العامل في مجال معين من مجالات المعرفة الإنسانية وفقاً لشروط حياته وخصوصياته، ولا يكون أحدنا مثقفاً في التصور الفُوكَوِي إلا إذا كان متخصصاً. يقول فوكو في هذا السياق بأن «ما يسمى بالمثقف العالمي - وربما كان يقصد نموذج جون بول سارتر- قد أخلى مكانه للمثقف المتخصص، وهو شخص يمارس عمله داخل مبحثه الخاص ولكنه قادر على استعمال خبرته على أية حال»[3].

وإذا كان غرامشي يتصور كل الناس مفكرين من حيث هم ذوات مفكرة في الأصل، وأن وجودهم دال على تفكيرهم وعلى أن وظيفة المثقف لا يقوم بها إلى القلة من كل هؤلاء الناس، فإن المثقف مع فوكو قد انحصر في المتعلم المتخصص دون غيره حتى من المشتغلين في مجالات الثقافة والعلوم والآداب، فحسب فوكو ليس كل ذي مستوى مثقفا، وإنما المثقف الحقيقي هو ذلك الذي يصارع ضد كل أشكال السلطة في كل الأمكنة من نظم المعرفة إلى نظم الوعي والخطاب مروراً بنظم الحقيقة، ليعلن بذلك عن موت المثقف الكوني العالمي الذي كان بتعبير فوكو حتى وقت قريب «هو الكاتب بامتياز: ضمير كوني وكائن حر يتعارض مع كل أولئك الذين كانوا يعتبرون مجرد مؤهلات في خدمة الدولة والرأسمال (...) لم يصبح دور المثقف إذن هو أخذ مكان أمامي وجانبي، لكي يقول الحقيقة الصامتة للجميع ولكن قبل ذلك أن يصارع ضد أشكال السلطة في المكان الذي يشكل فيه موضوعها وأدواتها في نفس الوقت: في نظام المعرفة، في نظام الحقيقة، وفي نظام الوعي والخطاب »[4]، وبالرجوع إلى سارتر في تأويل (ادوارد سعيد) لمقولة فوكو فإنه بغض النظر عن طبيعة علاقته مع فوكو نجده -أي سارتر- يتماهى مع التصور الفوكوي للمثقف معبراً عن هذا بقوله: «إن المثقف محكوم عليه بالانسحاب من الأفق كإنسان يفكر بدل الآخرين: أن نفكر بدل الآخرين: أمر غير معقول يضع مفهوم المثقف نفسه موضع سؤال»[5] على هذا الأساس شكلت موضوعة المثقف إشكالاً كبيرا في التحليل الفلسفي المعاصر، بدءاً من بيان المثقفين في

فرنسا إلى مقولة المثقف في الاستراتيجية التفكيكية الديريدية، فإذا كان "آلان" قد تصور للمثقف دوراً راديكالياً سلطوياً، فإن "إدوارد بيرث" في كتابه "مساوئ المثقفين" [1914] يوظف كل من برغسون ونيتشه لوصف المثقفين بكونهم "بيروقراطيي الفكر". وعلى نفس النهج يسير "ريمون آرون" في كتابه "أفيون المثقفين" [1955] مقارباً مقولة المثقف بما يسميه بالأساطير الثلاث، وهي على التوالي اليسار والثورة والبروليتاريا. يحاول "أرون" إيجاد خط فاصل بين الفئات الإيديولوجية التي تميز المثقفين بعضهم عن بعض من منطقة إلى أخرى، فيرى أن فن المثقفين البريطانيين يتمثل في اختزال بعض الصراعات ذات الطبيعة الإيديولوجية إلى مصطلحات تقنية، وفن المثقفين الأمريكيين هو تحرير صراعات تمس الوسائل أكثر من الغايات إلى صراعات أخلاقية، أما فن المثقفين الفرنسيين فهو تجاهل المشاكل الخاصة بالأمة وأحياناً تضخيمها بواسطة إرادة متعجرفة تعتقد التفكير من أجل الإنسانية أجمع [6].

2/حقيقة المثقف العربي ورهاناته.

وفي السياقات الفلسفية العربية المعاصرة يدخل (علي الحرب) مفككاً لخطابات ما حول المثقف ودوره في صناعة المعرفة، وبالخصوص المثقف الداعية أو القسيس، إنه يتماهى مع وصف "جوليان بيندا" للمثقفين في كتابه "خيانة القساوسة" 1972 إذ يقول هذا الأخير في المثقف: «يقول المثقف بمعنى من المعاني أن مملكتي ليست من هذا العالم»[7]، فليس المثقفون هم القادة أو زعماء المجتمع، ولا هم خِيرة أبنائه، ولا هم طلائع التقدم أو أصحاب الإبداع وصُناعِ التحضر، ولا هم الصفوة التي ينبعث منها الإبداع والتحرر والتحضر إلى ما حولها ولا هم الجماعة التي تشتق طريق الإنسان لتسير به نحو حياة أفضل كما تصور ذلك "قسطنطين زريق" في أكثر من موضع رابطا بين سؤال الحضارة ومكانة المثقف،[8] ولا يعني هذا أننا نريد إخراج المثقف من دائرة صناعة الحضارة والتاريخ، فقط ما نود طرحه هنا هو: هل المثقف عندما قدم نفسه على أنه الناقد والمتمرد استطاع النظر إلى نفسه ونقد ذاته، هل توجه إلى أفكاره لِيُفَنِّدَهَا ويُحَوِّلَهَا ويُسَائِلُهَا بل ويُحَاكِمُهَا؟ أم أنه ظل على طول الخط يضخم من دوره ليتحول بذلك من كاتب يكتب في شؤون وطنه وأمته وعالمه إلى سلطان يصدر الأحكام دون أن يكلف نفسه التوجه نحو ذاته. هذا ما يوضحه (خالد زيادة) في كتابه "الكاتب والسلطان من الفقيه إلى المثقف"[9].

ينتقد (علي حرب) الدور السلبي الذي لعبه المثقف العربي على وجه التحديد طوال زمن بعيد، لقد حرص المثقف العربي على الإشتغال «بحراسة الأفكار، ومعنى الحراسة التعلق بالفكرة كما لو أنها أقنوم يقدَّس أو وثن يعبد، على ما تعامل المثقفون مع مقولاتهم وشعاراتهم (...) فالأفكار ليست شعارات ينبغي الدفاع عنها أو مقولات صحيحة ينبغي تطبيقها، بقدر ما هي أدوات لفهم الحدث وتشخيص الواقع»[10]. على هذا الأساس يدعو علي حرب في مطلع نقده للمثقف إلى ضرورة التجديد الذاتي بتغيير نمط التعامل مع الفكرة، وكذلك تحديث العدة اللغوية والمفهومية حتى لا نتعامل مع الأفكار بمنطق يقتلها كما يجعلها تنقلب على أضدادها لتتحول من مكسب لصالحنا إلى شيء يقابلنا ويحكمنا. انطلاقا من هذا كان المثقف التنويري والعقلاني والتحرري ليس هو الذي يحيل الأفكار الخصبة التي أنتجت حول التنوير والعقل والحرية إلى مجرد معلومات يرددها على شكل محفوظات، وإنما هو الذي يقيم علاقة نقدية مع ذاته وفكره. وكان حرياً بالمثقف دوماً وفي كل آن أن ينفك عن كل رؤية أصولية ترمي به إلى التعامل مع قضايا الإنسان والحداثة والتنوير بصورة لا تنويرية ولا إنسانية، رؤية متشبعة بالفكر الإيديولوجي القائم على أساس الوحدة والمطابقة والتصنيف والإقصاء. وما زاد من تدهور الوضع هو نرجسيته القاتلة التي لم تنتج سوى العزلة والهامشية والاستبداد والتفاوت، بوصف المثقف ذاتا نخبوية أو كونه ينتمي إلى الصفوة، تلك الصفوة التي عملت على إعادة بعث الدور النبوي وممارسته في المجتمع من خلال ممارسة الوصاية على ثوابته وقيمه، إنه دور رسولي بامتياز في زمن «لم يعد بوسع المثقفين أن يلعبوا مثل هذا الدور النخبوي الذي وصل إلى مأزقه، بعد كل هذا الفشل النضالي والعقم الفكري (...) إذ الأجدى أن يعمل المثقفون على التحرر من أوهامهم النخبوية، لإعادة صوغ المفاهيم المتعلقة بالتغيير الاجتماعي والعمل السياسي أو الإنمائي»[11]، لنتحول من لغة الإدعاءات والتهويل إلى لغة العمل والتجسيد. فماذا ينفع وصف فئة من المجتمع بأنها الطليعة الواعية أو الجماعة المستنيرة، في حين نعيش على وقع فشل كل المشاريع النهضوية والإنماء والتحديث والبناء؟ من هنا تأتي الدعوة إلى تلميع صورة المثقف بأن ينخرط مجددا في دوائر صنع القرار وبأن يجعل من ثقافته خادما للوسط الذي يعيشه.

إن مقولة "نهاية المثقف" من شأنها أن تتيح المجال لأن نعاود النظر في مفهوم المثقف ومهامه ومسؤولياته خصوصاً بعد كل الهزال الوجودي والقصور المعرفي، على نحو يجعله يعايش انتمائه إلى المجتمع من منطلق انخراطه في الوعي الجمعي مقابل التخلي على الحس الفرداني؛ إنه مسؤول عن نفسه أولا وعن كلماته وأقواله وأفعاله كما هو مسؤول عن فشله وتعثره، ومهمته أن يستغرق في مجتمعه كل الاستغراق ليمارس فاعليته على نحو إيجابي مثمر، دون الانهمام بالثانويات والعرضيات على أن لا يتمثل نفسه على أنه مصدر للحقيقة ومصنع للحلول الخارقة. إننا بذلك نحوُّر هدف المثقف من العمل على تغيير العالم إلى العمل على تغيير نفسه بنفسه باستمرار دون انقطاع وعلى نحو «يتغير معه معنى التفكير ودور المفكر، كما تتغير الممارسات الفكرية بالذات، وهذا يقضي بأن نتخلص من ادعاءات القبض باليقين، وأن نكف عن ممارسة أدوار ممثل العقل أو مجسد القيم أو مالك مفاتيح الخلاص أو معلم الحقيقة الذي يتعالى على مجتمعه أو يسبق زمنه، فلا أحد يقبض على الحقيقة، كما لا أحد يقيم في مملكة للفضيلة أو يبرأ مما في مجتمعه من الشوائب والآفات»[12]، إن المخرج الحقيقي هو إعادة الاشتغال على الأفكار في ضوء الوقائع والتجارب بصورة تتيح لنا إعادة بناء أطر وشبكات ومناهج معرفية جديدة أو صنع عقلانية مغايرة إبداعية. يعمل المثقف هنا على رسكلة الأفكار وتحويلها إلى منجز حضاري أو إلى تحويلها وإعادة إنتاجها بأشكال أخرى من شأنها أن تترجم إلى براكسيس. يقول (علي حرب) «لا أراني أظلم المثقف الحداثي بذلك، فهو كأحد عمال الفكر مسؤول قدراً من المسؤولية، عما حدث ويحدث، ليس فقط لأن الكثيرين من دعاة الحداثة قد وقفوا إلى جانب الأصوليات الدينية والديكتاتوريات السياسية، بل لأن المثقف أخفق في مهمته الأولى التي هي تجديد الأفكار، بقدر ما تعامل مع قضاياه بصورة سلفية تقليدية ديكتاتورية، بوصفها حقائق نهائية»[13]، إذا كان المثقف في جوهره ناقدا اجتماعيا، فإن مجتمعنا يعيش على وقع صدمات متتالية وهزائم غير منقطعة، وإذا كان المثقف ضمير المجتمع والناطق باسم قوى التقدم فإن واقعنا يثبت تراجعنا على سلم القيم وتأخرنا عن العمل بأسباب التقدم، وإذا كان نفوذ المثقفين إلى السياسية نفوذاً قوياً فإن حالة السياسة العربية الراهنة تدعو إلى التشاؤم والاشمئزاز.

خاتمة:

إننا لا نعني بهذا نفي الدور الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي عن المثقف، وإنما المراد قوله هو ضرورة «فك الوصاية النبوية وكسر العقلية النخبوية الفوقية والمركزية مع ضرورة ممارسة النفي الفكري والتواضع المعرفي وأن نصحو من السبات، فهناك أناس لا يحملون لقب مفكر، إنما يمارسون علاقتهم بفكرهم بصورة خصبة ومثمرة»[14]، لذا فمشكلة المفكرين هي مع أفكارهم بالدرجة الأولى، مثلما أن مصدر الأزمة عند من يدعي حلها. من هنا ينادي علي حرب المثقفين للارتداد على ذواتهم من خلال كسر نرجسيتهم النخبوية وتحويل أفكارهم من أصنام نظرية إلى أمكنة خصبة يمارسون من خلالها عملية النقد الذاتي بكل أشكالها.

الهوامش:

1/ محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية الإسلامية "حفريات استكشافية"، في: المثقف العربي "همومه وعطاؤه "، مؤلف جماعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.لبنان، ط2، 2001، ص37.

2/ المرجع نفسه، ص. ص. 38. 39.

3/ أنظر إلى: إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة.مصر، ط1 2006، ص41 ص42.

4/ نقلا عن: محمد الشيخ، المثقف والسلطة "دراسة في الفكر الفلسفي الفرنسي"، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1991، ص109.

5/ نقلا عن: المرجع نفسه، ص.ص. 109..110.

6/ نقلا عن: المرجع نفسه، ص.ص. 110..111.

7/ نقلا عن، المرجع نفسه، ص110.

8/ أنظر إلى: أحمد صدقي الدجاني، لمحة تاريخية حضارات إنسانية رئيسية وعلاقة مثقفين بمجتمعاتهم، في: المثقف العربي "همومه وعطاؤه"، مرجع سابق، ص20.

9/ أنظر إلى: خالد زيادة، الكاتب والسلطان " من الفقيه إلى المثقف"، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة. مصر، ط1، 2013، ص250.

10/ علي حرب، أوهام النخبة أو نقد المثقف، المركز الثقافي العربي، المغرب.لبنان، ط3، 2004، ص11.

11/ المرجع نفسه، ص.14

12/ علي حرب، المصالح والمصائر" صناعة الحياة المشتركة"، منشورات الإختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010، ص11.

13/ علي حرب، الإرهاب وصناعه "المرشد.الطاغية.المثقف"، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت.لبنان، ط1 2015، ص .10

14/ علي حرب، المصالح والمصائر، مرجع سابق، ص. ص.103 - 105.